الكتاب الثاني

نشأة سبنسر العلمية

١- عصر سبنسر، وأثره في تكوين نزعته

عرفنا فيما تقدم كيف مهدت النهضة الأوربية سبيل العمل أمام الباحثين والمحققين، وكيف انجلت البحوث والتحقيقات عن تجديد عقلي سار في بلاد القارة خاضعًا لتيارات فكرية وعواطف قوية وأطماع علمية كانت فاتحة عهد جديد.

والتاريخ يحدثنا عن الثورة الفكرية التي قامت ضد النظم القديمة والسنن والتقاليد الموروثة، ويحدثنا كذلك عما كان من أمر دعاة الإصلاح وعما أحدثوه من التأثير في النفوس والعقول فتحرر، العقل الإنساني من قيوم الأباطيل وأغلال الأوهام، وتم له الفوز حين نهض رجال الثورة الفرنسية وكسروا تلك القيود وهدموا تلك المعتقدات، ثم حاول العقل الإنساني - بعد أن نشط من عقاله- أن يبني على أنقاض ما هدم بناء جديدًا على أساس الواقع ومواجهة الحقائق، وتولد شعور جديد استحال إلى عاطفة حقيقية عميقة، ومال العلماء إلى سبر غور الحياة كلها وإلى تحطيم كل عقبة تعترض أي مجهود إنشائي، واستمرت هذه الحركة تشتد وتمتد إلى كل شيء، فصار «الكون» موضوع التحقيق العلمي، وصار «الإنسان» موضوع بحث العلماء بحثًا علميًا، وانجلت هذه الحركة المباركة عن ارتقاء العلوم الطبيعية إلى أبعد حد يتصوره العقل الإنساني فكثرت الكشوف، وتشعبت المخترعات، وظهرت الأجهزة والآلات والصناعات والمنشآت فبهرت الناس هذه الزيادة المطردة، وأثرت في عقولهم تأثيرًا عظيمًا جعلهم يرون أن العلم بآثار الطبيعة والقوى المودعة فيها ضروري لتقدم العمران، وذهب بعض الفلاسفة والمحققين إلى أبعد من ذلك فحاولوا أن يحيلوا الطبيعة والمجتمع الإنساني إلى جسم آلي يستطيع الفكر أن يلم بأجزائه، وأن يردوه إلى أصوله.

فلما جاء القرن التاسع عشر كانت العلوم الطبيعية قد خطت خطوة واسعة، وظهرت آثارها العظيمة في جميع مرافق الحياة فكان القرن التاسع عشر تاجًا فوق هامة القرون

هذا العصر الذي سادت فيه آراء الفلسفة الحديثة المبنية على البحث في المادة والقوة والحركة، وعظم فيه الاشتغال بالعلوم الطبيعية- وفي هذا العصر الذي برزت فيه الطرق العلمية المبنية على تمرين الملاحظة باستخدام الحواس -وفي هذا العصر الذي استخدم فيه الباحثون طرائق الاستقرار العلمي لاكتساب المعرفة التي أسفرت عن غنم المدنية الحاضرة- وفي هذا العصر الذي آمن فيه العلماء بالقوانين العلمية والتجارب حتى أصبحوا لا يعتمدون على غيرها في تقرير الحقائق- وفي هذا العصر الذي وصفناه إجمالًا كان يعيش (سبنسر) بين لفيف من العلماء والفلاسفة أقطاب الحركة العلمية الحديثة الذين خضعوا لتأثير خفي صدر إلى نفوسهم من البيئات العلمية المادية خضوع غيرها لتأثير البيئات والمهن المختلفة التي قضوا فيها شطرًا طويلًا من حياتهم، وهكذا كان تيار العلوم الطبيعية يجرف أمامه في هذا القرن كل الاعتبارات الأخرى.

هذا العالم الذي شغلته الأبحاث المادية، وملكت كل حركته العقلية طريقة معينة تحتشد في عواطفه وأفكاره، ثم تسير نحو غايات علمية مادية سيرًا مضبوطًا إلى درجة ما بفعل التأثير..

هذه هي الحالة النفسية التي سرى حكمها وتغلب سلطانها على نفوس العلماء والباحثين والمحققين في القرن التاسع عشر، فظهرت حركة تحقيق دقيق منشؤها نمو الحركة العلمية الحديثة، وصبغتها المزاج والبيئة، وقوامها استخدام العقل البشري في تحليل الآراء وتقرير الصالح منها وإيضاح الغامض وتهذيب المضطرب مع رفض التعليلات النظرية التي كان من قبلهم يستندون عليها، والاعتبارات الأخرى التي كانت تتسلط عليهم، وغاية هذه الحركة إيجاد آراء حرة وإثباتها بكل دليل إثباتًا قوامه العلوم الطبيعية، وبرهانه القوانين العلمية الحسية، وجوهره التجارب العملية.

وهكذا كان الماضي القريب الذي اتصل به سبنسر، وكانت البيئة العلمية الزاهية في عصره من أكبر عوامل تكوين نزعته القائمة على أساس تعرف العلل الحقيقية والنواميس الطبيعية لكل ارتقاء رائدها الاهتداء بسنن هذه النواميس، وجعل أعمالها كلها تتلاءم مع النسق الطبيعي، وتخضع للتدرج الاجتماعي في الارتقاء وغايتها استخدام هذه المعرفة لإبلاغ الإنسانية أرقى درجة من الكمال جاعلًا وسيلة تحقيق هذه الغاية التقصي في درس وبحث العلوم الطبيعية.

٢- مواهب سبنسر، وأثرها في تكوين ثقافته

شهد فحول الرجال وجهابذة النقد للعلامة سبنسر بالنبوغ والتفوق، وأجمعوا فيما بينهم على حدة ذهنه وقوة تصوره؛ فذكر عنه «جون استورت مل» في كتابه عن (أوجست كنت) أنه من أقوى العلماء ذهنًا، وكتب عنه العلامة «دارون» في مقاله عام ١٨٧٠م: (إني على يقين بأن سبنسر سيعتبر بحق أعظم فلاسفة هذا القرن ويعني بذلك القرن التاسع عشرة صفحة ٧ كتاب «كمبير»، ولذلك كان يذكره بقوله: «فيلسوفنا الكبير»).

والواقع أن العلامة سبنسر قد امتاز عن كثير من أمثاله بمواهبه الطبيعية التي ساعدته على كثرة الاطلاع والدرس والتحقيق في عامة الموضوعات؛ فقد كان ذا عقل جبار استعان به على أن يحيط بشيء كثير من العلم الجم، واستعان بنظره البصير وقريحته الفائقة أن يدرك خصائص الأشياء ودقائقها.

وهكذا تكونت له ثقافة عالية نادرة المثال في عصره وقبل عصره. وآية ذلك أنه لم ينظر كغيره من الفلاسفة إلى ناحية من نواحي الحياة، ولم يوجه عنايته إلى درس علم خاص من العلوم، بل كان باحثًا في كل شيء منقبًا عن حقيقة كل شيء حتى كانت أتفه الأشياء كأعظمها يتناولها بحثه وتحقيقه. يدلك على ذلك ما كتبه في علوم شتى وموضوعات متباينة.

بينما نقرأ للعلامة سبنسر موضوعًا في (نظرية السديم) نجد له مقالًا آخر عن نظام السكك الحديدية وغيره من المسائل السياسية والاجتماعية[١].

وجاء في مجلة المقتطف المجلد الرابع والثلاثين صفحة ١٠٥ أنه لما عاده- أي: سبنسر صديقه المستر ليونارد كورتني قبل وفاته بأربعة أسابيع جعل سبنسر يحدثه في السياسة المالية التي هي شغل الإنجليز الشاغل.

وهكذا كانت مواهب سبنسر العالية من أهم عوامل تكوين ثقافته تلك الثقافة التي مكنته من أن يتناول بحثه مجموعة من المسائل العلمية والاجتماعية والخلقية والسياسية والاقتصادية، فلم

١- H Spencer Compayre p

يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وضعها تحت بحثه لتفهمها واستخراج قوانينها، فكان عقله المستنير واسع المدى بعيد القرار كالمجهر يستوضح به خفايا المسائل، ويستنير بضوئه في المدلهمات والمبهمات، ويتغلب بقوته على حل المشكلات والمعضلات.

لم يكن سبنسر الرجل العادي فهو لا يفهم الحياة إلا عن طريق تحكيم العقل وإجهاد الذهن، وقد عاش -كما قدمنا- في وسط بيئة علمية فكان لا بد لهذا العقل الكبير من أن يجني أعظم الثمرات ويحقق أشرف الغايات فكان نابغة عصره.

والنابغة يظهر في كل عصر وبين كل أمة، ولكن تنازع البقاء الذي يهيئ كثيرين من الأحياء لأن يكونوا فريسة لغيرهم هو الذي يترك كثيرين من النوابغ في صفوف العامة، ويضرب عليهم حجاب الخمول والانزواء إن لم يوفقوا إلى ظروف حسنة وأحوال ملائمة لنبوغهم. وسبنسر ممن مهدت لهم الطبيعة ظروفًا حسنة وأحوالًا ملائمة لنبوغه، فكان عصره عصر نور وعلم وعرفان، وما كان أصدق رغبته في اكتساب المعرفة.

وكان أظهر علوم هذا العصر العلوم الرياضية والطبيعية، وما كان أعظم ميله بفطرته إلى هذا النوع من العلوم.

ويقينًا مهما قيل: إنه ورث قوة العقل عن والده، فليس ثمة شك فإنه تأثر بالبيئة العلمية التي عاش في ضوضائها، وكذلك وجدت شعلة ذكائه مكانًا فسيحًا وملاءًا تضيء فيه فكل دروس المدارس لا تقابل بنظرة واحدة إلى مشاهد الطبيعة حينما تتجلى لدى عين باصرة وعقل مستنير، وقد كان لسبنسر ذلك العقل وتلك العين.

هذه المواهب الطبيعية زهت ونمت في هذه البيئة الصالحة لغذائها، ثم أخذت تمحص كل الآراء وتعالج كل المسائل، فكانت لسبنسر تلك الثقافة العالية وأنتجت هذه الثقافة منتوجًا ذهنيًا أثار اهتمام العلماء بما في هذا المنتوج من الحقائق الجسيمة والآراء الخطيرة.

ويقينًا أن الوسائل التي نفعت سبنسر كانت حقًا كثيرة وعظيمة، ولكن لا ينتفع منها كانتفاع سبنسر إلا سبنسر نفسه كان ذكاؤه الفطري، وكانت مواهبه الطبيعية من أهم عوامل الاستفادة وزيادة الانتفاع وتكوين هذه الثقافة العالية..

٣- ثقافة سبنسر، وأثرها في تكوين مذهبه الفلسفي

عرفنا كيف أن الماضي القريب الذي اتصل به سبنسر، وكيف أن البيئة العلمية الزاهية في عصره كانتا من أكبر عوامل تكوين نزعته القائمة على أساس تعرف العلل الحقيقية والنواميس الطبيعية لكل ارتقاء، وعرفنا كيف أن مواهبه ولدت له ثقافة عالية مكنته من سعة الاطلاع بجمع الحقائق والتقصي في تحليلها وتمحيصها على أساس بحث ودرس العلوم الطبيعية، وكان منشأ كل هذا هيام سبنسر بالطبيعة، ذلك الهيام الذي جاءه من عدة عوامل: جاءه من الأسرة التي نبت فيها؛ فقد كان أفراد هذه الأسرة من عشاق الطبيعة (كما سيتبين لك ذلك من ترجمة حياته)، وجاءته من ميوله الفطرية؛ حيث شرع منذ نعومة أظفاره، يجمع الحشرات ويجري وراءها في الحدائق والحقول إرضاء لشهواته، ثم جاءته بوجه خاص من الأثر الذي تركه روسو (وسترى فيما يلي عند تحليل رسالته في التربية روح روسو بذاتها)، وليس بعجيب أن تكون لروسو تلك القوة الساحرة، وقد أثار في نفوس أهل ذلك الجيل الولع الشديد بالطبيعة..

ذكر الدكتور المحقق محمد حسين هيكل في كتابه عن روسو الجزء الثاني صفحة ٤٧ ما يأتي:

(فلم يكن بد من كاتب حي العاطفة، قوي الحس، شديد الإحساس، غزير الدمع، رقيق الشعور؛ ليدفع إلى هذا الجفاف روحًا جديدة تخاطب القلب، وليدر من دمعه على العواطف المجدبة بسبب خضوعها للشهوات المتحكمة وابلًا يعيد إليها حياتها وخصبها) (وأي كاتب أقدر من روسو على القيام بهذا المجهود العظيم) (وهكذا كان لروسو ذلك الأثر المبين في تكوين هيام سبنسر بالطبيعة، لكن نظرة روسو كان مصدرها الوجدان، وباعثها العاطفة؛ فعشق الطبيعة، وهام بجمالها وجلالها، وآمن بعظمتها وكمالها، فحاول بما أوتي من قوة التحرير وسحر في البيان أن يدفع الناس إلى الاقتراب من بساطة الطبيعة في حين أن نظرة سبنسر مصدرها الفكر، وباعثها حب الاستطلاع فعشق الطبيعة، وهام بسداد نواميسها وسننها، وآمن بعظمة دقائقها وخصائصها، فحاول بما أوتي من حدة الذهن وقوة الفكر أن يكشف عن هذه النواميس وتلك القوانين؛ ليهتدي الإنسان بهديها، ويسير جريًا وراءها نحو الرقي والكمال. على أن الفارق بين المفكرين جاء كذلك من ناحية أخرى؛ فروسو لم يكن ليحلم بما جاء به القرن التاسع عشر من الآراء العلمية الحديثة ذكر جبرائيل كمبير في مقدمة كتابه عن سبنسر صفحة ٨

«إن روسو لم يدرك ناموس التطور الذي أدركه سبنسر، فكان سراجه المنير في بحوثه الخطيرة».

ويقينًا كان أمام سبنسر سراج علمي وهاج، جاء من تقدم علم الحياة، وعلم التاريخ الطبيعي، وعلم طبقات الأرض، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم النفس. ثم قام إلى جانب هذا عامل خطير غيَّر مجرى أفكار العلماء؛ ذلك أن نتائج مجهودات (لامارك)، و(دارون) أخذت في الشيوع والانتشار، فآمن سبنسر بما جمعه الأول من الأدلة عن (تسلسل الأنواع)، وأعجب بما كتبه دارون عن (أصل الإنسان) كل الإعجاب فصادفت هذه الآراء العلمية التي تمس نظرية النشوء في ذهن سبنسر مكانًا خصبًا نبتت فيه بذورها، ونضجت أثمارها.

ذكر جبرائيل كمبير في كتابه عن سبنسر صفحة ١٦: (أن دارون عندما نشر آراءه عن أصل الأنواع عام ١٨٥٩ لم يجد إنسانًا كان قد تهيأت مداركه، وأعد ذهنه لتفهم هذه الآراء الحديثة وهضمها أكثر من سبنسر).

وفي الواقع قد اتخذ سبنسر ما ظهر من هذه الآراء قاعدة ارتكز عليها لمواصلة بحوثه وتحقيقاته، فاستطرد به البحث إلى كشف نواميس الارتقاء، ورأى ضرورة مجاراة هذه النواميس، فوضع فلسفته العامة التي جمع فيها كل العلوم، ووحَّدها فكانت فلسفته الإنشائية المشهورة (كعلم العلوم).

٤- مذهبه الفلسفي، وأثره في مؤلفاته

ليس في مقدورنا الآن أن نتبسط في بيان فلسفته وموضوع رسالتنا تحليل آرائه في التربية فقط، على أنه متى كان عملنا في جملته- لا يعدو (المحاولة) فليس ثمة مانع من بيان مدلول فلسفته في أبسط المعاني، كما فهمناه مما جاء نقلًا عما كتبه سبنسر عن نفسه في المجلد التاسع والعشرين، والثلاثين، والرابع والثلاثين، والخامس والثلاثين صحيفة (المقتطف)، ومما جاء نقلًا عما كتبه المستر مكفرسن، والمستر (هدسن) عن فلسفة سبنسر، ومما جاء في دائرة المعارف الإنجليزية..

بعد أن درسنا ما تقدم لاح لنا أن أهم خصائص فلسفة (سبنسر) ما يأتي:

أوَّلًا: أن سبنسر لم يبحث عن العلة الأولى ولا عما وراء الطبيعة، ولكنه سلم بوجودهما؛ إذ رأى أن البحث فيهما مما لا يدركه العقل البشري، وبدأ بحثه الفلسفي من نقطة تلي ذلك مباشرة قاعدتها (ثبوت القوة) للعالم المادي في شكليها المادة والحركة، هذه الخاصة تخرج العلامة «سبنسر» من حظيرة الفلاسفة الماديين الذين يؤمنون (بالتولد الذاتي)، قال سبنسر في هذا الصدد: نرى من بين كل هذه الأسرار التي تزداد غموضًا كلما زاد تحقيقنا فيها حقيقة واضحة لا بد منها وهي أن يوجد فوق الإنسان قوة أزلية أبدية ينشأ عنها كل شيء.

ثانيا: جعل سبنسر ما يدركه العقل من فلسفة الأشياء محصورًا من وقت وجود مادة الشيء وخروج القوة منها إلى حين امتصاص القوة وتفرق هذه المادة، وهذه الخاصة تبيِّن لنا أن العلامة سبنسر لم يقصد بفلسفته إدراك حقيقة الموجودات قبل أن صارت في الصورة التي نراها، ولا إدراك ما تصير إليه بعد أن تختفي عن أبصارنا، وإذن كل بحثه مقصورًا على الأسباب التي نراها مباشرة للمسببات، وفي النتائج التي تنتج عنها أي أن غرضه الفلسفي معرفة العلاقة بين النواميس الطبيعية وبين الظواهر المختلفة التي يظهر الكون بها.

ثالثًا: إن العالم في «نظره» في تغير مستمر، وأن كل ما يقع فيه من التغيير كبيرًا كان أو صغيرًا، طبيعيًا أو عقليًا أو اجتماعيًا، كل ذلك يرد إلى تفاعلين وهما: «النشوء والانحلال»، أو بعبارة أخرى (الكون والفساد).

رابعًا: لكي يجعل سبنسر فلسفته قائمة على الاستدلال القياسي أيضًا فرض بديهيات أو مقدمات ثابتة، وأهم هذه المقدمات هي:

أ- القوة ثابتة لا تتلاشى، ولكنها تتغير على الدوام من صورة إلى أخرى.

ب- المادة لا تنعدم ولا تتجدد، ولكنها تتشكل.

حـ- الحركة دائمة، ولكنها تسير في أقل الجهات مقاومة.

فلما اعتبر سبنسر هذه مقدمات يقينية صارت فلسفته قائمة على أساس الاستدلال الاستقرائي والاستدلال القياسي معًا، قال في هذا الصدد: «إني كنت لا أكتفي بنتيجة وصلت إليها بالاستقراء ما لم أصل فيها إلى المبادئ الأولى، ولا أكتفي بالمبادئ الأولى حتى أحققها بحوادث

الاستقراء».

وقد ظهر لسبنسر فوق ما تقدم أن كل الأفعال في مجموعها جارية على ناموس طبيعي واحد مهما ظهر لنا أن كل عمل على حدته خاضع لناموس خاص به؛ فإن التغييرات المختلفة ليست في الواقع منفصلة في ذاتها، وإنما نحن نفصلها لتسهيل النظر والبحث في علتها على حدتها، ومن هنا رأى ضرورة البحث عن الناموس العام (الاتصال النسبي) الذي يجمع كل الفواعل الطبيعية المختلفة والتغييرات المستمرة، فأخذ ينظر في النواميس العامة التي تجري عليها المادة والقوة في توزيعهما، وإعادة توزيعهما إجمالًا وتفصيلًا؛ لكي يرد هذه الأفعال كلها إلى نظام واحد معقول فاقتيد استطرادًا إلى البحث عن ارتقاء الإنسان شخصيًّا (بنوع خاص)، وعن ارتقاء جماعاته (بنوع عام)؛ فمطلب الفلسفة في نظر سبنسر البحث عن الناموس الكلي الذي ترجع إليه نواميس المادة والقوة، أي: هي (علم العلوم)؛ لأنها تضم قواعد العلوم كلها وتوحدها لتردها إلى أصل واحد شامل لها كلها، وهكذا أكثر سبنسر من البحث والتقصي إلى أن رد العلوم كلها والظواهر الطبيعية كلها ناموس واحد، فوحدت فلسفته العلوم، وجعلتها علمًا واحدًا.

كتب سبنسر إلى الأستاذ (هدسن) كتابًا في هذا الصدد، لخصه الأستاذ كما يأتي:

«أن جرثومة فلسفته ظهرت أولا في كتابه (النظام الاجتماعي)؛ حيث ذكر في الفصل المعنون «بأمور عادية» حقيقة بيولوجية مفادها أن الأنواع الدنيا من الحيوان مؤلفة أجسامها من أجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض، وأما الأنواع العليا فأجسامها مؤلفة من أعضاء مختلفة يتوقف بعضها على البعض الآخر، وقد قال: إن هذا كان نتيجة استقرائية وصل إليها في غضون دروس علم الحياة، ويخيل إلي أن أكثر ذلك كان وأنا أسمع خطب الأستاذ (أون) على هياكل الحيوان الفقرية، وهذا الأمر يصدق على جماعات الناس فإنها تبتدئ بأجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض، ووصل إلى هذه النتيجة بالاستقراء أيضًا، ثم من الجمع بين هاتين النتيجتين استنتج نتيجة ثالثة وهي:

«أن الفرد من أفراد الأحياء، والفرد من أفراد الجماعات خاضعان لناموس واحد على حد سواء».

فأدنى أنواع الحيوانات أجسام هلامية متماثلة الأجزاء لا يتوقف جزء منها على الجزء الآخر حتى إذا فصل أحدها يبقى حيًّا، وتبقى فيه صفات الجسم كله كما يفصل نقطة الماء من غدير، ويكون فيها كل خواص ماء الغدير. وأعلى أنواع الحيوانات الإنسان أجزاؤه متخالفة غير متماثلة، بل متفردة لكل جزء منها صورة خاصة به؛ فاليد غير الرِّجل، والقلب غير الطحال، ولكنها غير مستقلة؛ إذ يتوقف بعضها على بعض فاليد لا تعيش وحدها، والقلب لا يعيش وحده. وهكذا جماعات الناس كانت في أول عهدها، والناس على الفطرة مؤلفة من أفراد متماثلين كل واحد مثل الآخر من حيث نسبته إلى المجتمع، ولا يتوقف أحدهم على الآخر في معيشته وسائر أحواله، فيصنع طعامه، ويبني بيته، ويدافع عن نفسه. يفعل ذلك كله وحده، ثم تولدت الفروق بين أفراد المجتمع فصار بعضهم حكامًا، وبعضهم جنودًا، أو بعضهم حراسًا وصناعًا، وصار بعضهم يتوقف على البعض، فلا غنى للملك عن الجنود والحراس والصناع، ولا غنى للصناع عن الملوك والجنود وهلم جرًّا «انتهى».

ومن ثَم اتضح لسبنسر أن في الحياة ميلًا إلى التفرد أي: أن الجسم غير الحي لا يكون متفردًا، بل يكون مثل غيره في حين أن الجسم الحي له ذاتية متفرد بها، وكلما زاد الحي ارتقاء زاد تفرده ظهورًا، وإذن فالتفرد غاية كل ارتقاء في الموجودات، ولما بحث في ناموس التفرد وجده قائمًا على أساس فعلين متصلين: الأول الميل إلى فصل «الفرد» عن غيره من الأفراد المماثلة له، والثاني زيادة تركيب الفرد الذي فصل عن غيره فيصير مباينًا لما فصل له. وهكذا شأن الارتقاء قائم على أمرين: الأول اختصاص عام مع ازدياد في التركيب، والثاني استقلال متبادل بين الأجزاء المنفردة من الجسم الحي.

قال سبنسر في تعريف الارتقاء أو النشوء: «إنه فعل مزدوج يقوم بالتخصيص مع ما ينتج عنه من زيادة التركيب، وبالتعليم مع ما ينتج عنه من زيادة الوحدة».

وقال العلامة فون بير: «إن سلسلة التغيرات: البذرة حتى تصير شجرة، والبيضة حتى تصير حيوانًا -إنما هي ارتقاء من التماثل في البناء إلى التباين فيه» ومن ثَم يتبيَّن لنا أن هذه القاعدة ارتاح

ولما وصل العلامة سبنسر في بحثه عن الارتقاء وناموسه وسببه أراد أن يطبق ناموس الارتقاء على كل الموجودات مما يتصل إليه بحث الإنسان من نبات وحيوان، وأخلاق وعادات، وعلوم وفنون.

وغير ذلك قال العلامة سبنسر في هذا الصدد: «إن مدار كل ارتقاء على الانتقال من المتماثل إلى المتباين، ولكي يستوضح خفايا هذه الرأي أخذ يضرب الأمثال الجمة فقال:

«إن الارتقاء في أنواع النبات والحيوان، والأخلاق والعادات، والعلوم والفنون، وكل ما يتصل إليه بحث الإنسان مداره كله على الانتقال من المتماثلات إلى المتباينات؛ فالجماد دقائقه متماثلة: ذرة الهواء، ونقطة الماء، وقطعة الذهب مثل قطعة الذهب، ثم يظهر الاختلاق في النبات ويكون قليلا في أنواعه الدنيا، فتتألف أعضاؤه من حويصلات متواصلة، ثم يزيد في أنواعه العليا فيصير فيه ورق وزهر وثمر، ويكون في الزهر كأس وتاج وأعضاء تذكير وأعضاء تأنيث، وفي الثمر قشر ولب وبذر وهلم جرا».

ولكن تبقى مزاياه في كل أجزائه تقريبًا على السواء؛ فإذا قطعت غصنًا منه لم يمت بقطعه. وإذا غرسته عاش ونما وصار شجرة مثل الشجرة التي قطع منها، وكذلك الحيوانات الدنيا كالإسفنج فإنها مثل النباتات من هذا القبيل متماثلة الأجزاء وقوة النمو والتولد قائمة في كل جزء منها، بخلاف الحيوانات المرتقية فإنها انقسمت إلى ذكور وإناث جريًا على ناموس تقسيم الأعمال بزيادة ارتقائها، ولكل عضو من أعضائها شكل خاص به ووظيفة يقوم بها: فالقلب لا يشبه المعدة ولا يفعل فعلها، واليد لا تشبه الدماغ ولا تفعل فعله، وإذا قطع عضو من هذه الأعضاء فقد حياته سريعًا...

وهذا شأن العادات، والعلوم والفنون، وسائر أعمال الناس وأحوالهم، مثال ذلك: إعداد الطعام وعمل الثياب؛ فقد كان الرجل وزوجته يحرثان الأرض ويزرعان الحنطة ويحصدانها ويدرسانها ويطحنانها ويخبزانها، ويرعيان الغنم ويجزان صوفها ويغزلانه ويحيكانه ويخيطان الثياب منه، وكان غيرهما يفعل فعلهما، فتوزعت الأعمال بازدياد العمران، فصار لكل من الحرث والزرع والحصاد والدراسة والطحن والعجن والخبز أناس يعملونها، وقس على ذلك سائر الأعمال.

وكان أبو العائلة حاكمها وقاضيها وكاهنها وطبيبها، فتوزعت هذه الأعمال على أناس مختلفين استقل كل منهم بعمل دون غيره، ولا يزال التخصيص يقوم مقام التعميم في هذه الفروع؛ فقد كان الطبيب الواحد يتعاطى الجراحة ومعالجة العيون والآذان وأمراض النساء والأطفال، فصار لكل ذلك طبيب خاص به، وهذا هو المراد بالانتقال من التعميم إلى التخصيص في الطبيعة كلها، ومن التماثل إلى التباين...

ولما رأى سبنسر ذلك قال: إنه كشف ناموس الارتقاء، لكنه رأى -لدى إنعام النظر- أن الانتقال من التماثل إلى التباين لا يشمل كل أساليب الارتقاء، بل يشمل بعضها أو أظهرها، وأن بعض ما يشمله ليس من الارتقاء في شيء، بل هو انحطاط وانحلال كتولد السرطان الذي في الجسم، وحدوث الثورة في البلاد. وبعد بحث طويل في هذا الصدد عرَّف الارتقاء تعريفه المشهور، وهو أنه: (تجمع في المادة يصاحبه تفرق في القوة، تنتقل به المادة من شكل متماثل الأجزاء غير محدود ولا متصل إلى شكل متباين الأجزاء محدود ومتصل، ويتغير شكل القوة التي فيه في غضون ذلك تغيُّرًا موازيًا له)

هذا هو جزء ضئيل لبيان مذهبه الفلسفي الذي انتهى به إلى النتائج الآتية:

١- أن في الحياة ميلًا إلى التفرد...

٢- أن التفرد غاية كل الارتقاء...

٣- أن مدار كل ارتقاء على الانتقال من المتماثل إلى المتباين...

٤- أن كل التغيرات التي تحدث لجميع الموجودات خاضعة لناموس واحد عام شامل لها كلها يرد إليه كل ارتقاء...

٥- أن هذا الناموس ينطبق على كل الموجودات والأفعال، والأخلاق والعادات، وكل ما يصل إليه بحث الإنسان...

٦- أن مطلب الفلسفة هو البحث عن هذا الناموس الكامل الشامل الذي ترجع إليه أساسيس كل الموجودات، ومن ثَم كان طبيعيًّا أن يعالج سبنسر جميع العلوم؛ لأنه يريد أن يضم

قواعد العلوم كلها ويوحدها؛ ليردها إلى أصل واحد شامل لها كلها...

وكان طبيعيًا أن يصدر بعد التحري والتقصي في البحث سلسلة من الكتب تتضمن خلاصة ما وصل إليه الناس من الحقائق العلمية طبيعية كانت أو عقلية؛ لكي يبيِّن الرابطة الفلسفية التي بينها ويبني عليها فلسفة جديدة، ونعني بها (فلسفته التركيبية) التي هي في الواقع ثمرة جهاد علمي عنيف استغرق نحو النصف قرن، وانتهى به إلى إصدار مؤلفات كثيرة، فوضع كتابًا أسماه المبادئ الأولى، شرع في تأليفه عام ١٨٦٠، وجعله قسمين: موضوع الأول (ما لا يعرف) وفيه فصول عن الدين والعلم، وكون المعارف كلها نسبية، وموضوع الثاني (ما يعرف) وحجمه أربعة أضعاف الموضوع الأول وفيه فصول كثيرة عن مبادئ الفلسفة وما يتعلق بها، وفصول أخرى عن النشوء والارتقاء ونواميسه ومدلولاته...

نروي فيما يلي موجزًا من الخطاب الذي ألقاه المستر «ليونارد كورتني» ساعة دفن المستر «سبنسر» وهو في الواقع خطاب عظيم الدلالة على قيمة مؤلفات الراحل العظيم يقرب إلى الأذهان صورة صادقة للمجهودات التي صرفها سبنسر في إخراج مؤلفاته، ويبيِّن للقارئ معنى أغراضه ومراميه من تلك المؤلفات قال الخطيب:

«إن أول ما يخطر على بال من ينظر إلى حياة «سبنسر» هو الإعجاب بالكتب الكبيرة التي صنفها فالشكر لله؛ لأنه عاش حتى أتمها. فإنه ما من أحد من الفلاسفة ابتدأ عملًا كبيرًا مثل عمله واستطاع أن يقوم به إلى آخره، حتى لقد حسب الناس أن القائمة التي نشرها عام ١٨٦٠ عما عزم على تأليفه من الكتب حلم لا يرجى إتمامه؛ لما قد يعترضه من العقبات الجمة. وقد اعترضته هذه العقبات فقام ضعف صحته في وجهه، واضطره إلى تأجيل عمله إن لم يكن إلى العدول عنه، ولم يكن على ثروة طائلة تكفي للإنفاق عليه، فنفد ما عنده من المال سريعًا، أما اعتلال صحته فبقي عقبة كبيرة في سبيل الإسراع في تأليفه؛ لأنه اضطر أن يقتصر على ساعات قليلة كل يوم، وأن ينقطع أحيانًا عن التأليف زمانًا طويلًا، ومن الغريب أنه استطاع أن يؤلف ما ألفه مع ما كان في صحته من الاعتلال، وقد مر ست وثلاثون سنة من حين شرع في تأليف هذه الكتب إلى أن أتمها. ولا غرابة في ذلك نظرًا لاتساع نطاقها وغزارة مادتها؛ فإن كل حوادث التاريخ، ومسائل العلم، ومطالب الفلسفة، وكل الدرجات التي تدرج فيها ارتقاء الإنسان جمعت معًا واستنتجت منها

نتيجة بديعة ساطعة، وهي كيف نشأ العالم.

فبهذا الاتفاق الذي وجده سبنسر بين مصادر متخالفة، وبهذا الارتباط الذي بينه وبين موارد منفصلة متشعبة قامت عظمته، وشعر الألوف من قراء كتبه المتتابعة باكتشاف أسلوب عظيم بديع للارتقاء لم يكن معروفًا من قبل، وإن كان البعض قد ظنوا أن هذا البحث يصل إلى حد لا يتعداه، أو أنه قاصر عن إيضاح بعض الغوامض أو ضعيف في بعض المقدمات فلا شبهة في أن جمهور القراء في العالم المتمدن كله، مقتنع تمام الاقتناع بأن سبنسر أفاد بمؤلفاته، واختط خطة جديدة للبحث، سيكون لها شأن كبير في تعليم الناس وتهذيبهم.

نعم إن أول ما نعجب به في مؤلفات سبنسر هو اتساع نطاقها، وقوة حجتها، وشمول النتيجة الساطعة التي وصل إليها، ولكن يجب أن لا ننسى أن غرضه الأول والأعظم منها إنما كان نفع نوع الإنسان، فلما ترجح له أن صحته لا تمكنه من إتمام مؤلفاته بادر إلى إتمام الفرع الذي حسبه أنفع من غيره لنوع الإنسان وهو البحث عن الأصول التي تبني عليها المعاملات الشخصية والسياسية (العمومية)؛ لأن غايته القصوى كانت اكتشاف الأصول الحقيقية التي تبنى عليها المعاملات، فلما رأى أن عمره قد ينقضي في الأعمال التمهيدية فلا يصل إلى مقصده الجوهري تركها وبادر إليه، وكانت الأصول التي وصل إليها في بحثه التمهيدي قد فتحت له السبيل للوصول إلى هذا المقصد؛ لأن توازن القوى الطبيعية الذي وجد أنه يعلل كل الحركات المادية رأى له مثيلًا في توازن القوى المتسلطة على نوع الإنسان في ارتقاء جماعاته.

٥- ترجمة حياة سبنسر

في اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٢٠ ولد (هربرت سبنسر) من أسرة اتصلت نسبيًا بالحركة العلمية في ذلك الحين، وقامت بواجبها على قدر طاقتها نحو نشر التعليم، فكان عمه (توماس سبنسر) قِسًّا ورعًا طيب القلب ميالًا لفعل الخير ومساعدة الضعفاء، افتتح مدرسة وأنشأ دارًا للكتب لأهل بلده، وكان (أبوه) معلمًا في مدينة (دربي)، ثم عين عام ١٨١٤ ناموسًا (سكرتيرًا) (لجماعة محبي العلوم الطبيعية) تحت رياسة زعيمها ومؤسسها (أرزمس دارون)، فأتيحت حينئذ لوالده فرصة دراسة علم الحشرات واتيح لابنه الصغير هربرت أن يجمع

كل ما صادف في الحقول من الحشرات ويأتي بها لوالده.

ذكر جبرائيل كمبير في كتابه عن سبنسر صفحة ١٢ (وكما أن هربرت سبنسر تعوَّد جمع الحشرات منذ نعومة أظفاره، فقد شب مغرمًا بجميع المعلومات ولم شعث الحقائق).

ولما كان لأسرته نظر خاص في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية، وكان أفرادها يتناقشون فيما بينهم بحرية وصراحة، وسبنسر الصغير على مقربة منهم -اتيحت له فرصة لسماع آراء شتى في هذه الموضوعات..

ذكر المستر (مكفرسن) في كتابه عن سبنسر: (إن والديه كانا على مذهب واحد ديني وهو مذهب (المتودست)، فمال أبوه إلى اعتناق مذهب آخر، وظلت أمه على مذهبها، ولا بد من أن يكون سبنسر الصغير قد سمعهما يتناظران ويتبادلان الآراء في أفضلية كل من المذهبين على الآخر، ويبحثان ذلك في جو من التسامح، حتى كان ولدهما سبنسر يتبع أباه في صباح يوم الأحد إلى كنيسة تؤيد مذهبه، ويرافق أمه في المساء إلى كنيسة مذهبها، كل هذه الظروف وأهمها نزوع أبيه عن مذهبه الأول إلى مذهب آخر خفف سلطة المذاهب الدينية من نفس سبنسر فشب طليقًا من اعتباراتها لا يأبه لسلطانها ولا يحفل بقيودها ولا يدرك ما يشعر به غيره ممن ربوا تحت سلطتها..

في هذه الأسرة المهذبة التي تحترم حرية الرأي وتنشد الحقيقة أنى كانت نشأ سبنسر فأُرضع بلبان معارفها وورث عنها البحث وخصوصًا في العلوم الطبيعية، كما ينشأ أهل المجادة، وبدت عليه مخايل النجابة والفضل، فأشخصه والده في الثالثة عشرة من عمره إلى بلدة «هيتون» للتعلم، وهناك بذ بذكائه ونجابته زملاءه في التحصيل، وما زال يفوتهم صعدًا حتى نبغ بينهم وبخاصة في العلوم الرياضية..

وعلى الرغم من أنه لم يبق بالمدرسة إلا ثلاث سنوات فقد ظهرت فيها مواهبه الطبيعية، فبدا إذ ذاك لعمه توماس أن يرسله (إلى جامعة كمبردج) غير أن سبنسر حاول أن يعتمد على نفسه في تحصيل العلوم وجمع المعارف والحقائق، ومن ثَم شرع يجد ويكد فكان معلمه الأكبر عقله النادر وقوة ملاحظته وطول أناته. فجمع من حيث الثقافة والتهذيب من حسن التقى وكمال الورع من ناحية وسعة الاطلاع وتقديس الحرية من ناحية أخرى.

درج متميزًا بهاتين النتيجتين معًا في دراسته المدرسية، ودرج كذلك أثناء درسه في بيته، وكان متميزًا إلى جانب هذا كله بموازنة النتائج التي يصل إليها بحثه- وصادف درج سبنسر في بحوثه تقدم العلوم الطبيعية فاستولت قوانينها على لبه فبرز بين معاصريه معجبًا بها مؤمنًا بأن واجبه العلمي يقضي عليه بالانتصار لها واستخدام نواميسها في رقي الأفراد والجماعات- وما زال يأخذ الغايات دراكًا حتى عين مهندسًا للسكة الحديدية في برمنجهام ولندن عام ١٨٢٧، لكن عملًا إداريًا كهذا كان بلا نزاع يباين نزعته؛ إذ إن ميوله الفطرية هيأته لعمل غير الأعمال الإدارية، فتخلى عن عمله هذا واندفع إلى صناعة التحرير، وظهر أمام الجمهور كظهور نجم جديد في السماء حيث عين مساعدًا للتحرير في صحيفة (المقتصد)، فقرأ له الناس عدة مقالات عالج فيها موضوعات شتى، وكان فاتحة عهده بالتحرير عام ١٨٤٢ حين كتب مقالته الشهيرة (عن مهمة الحكومة)، ولم يقتصر عمله على التحرير في صحيفة المقتصد، بل كانت صحيفة (وست منستر) مسرح آرائه الفلسفية الأولى...

لكن سبنسر رأى أن نطاق الصحف يضيق ذرعا بما يفيضه عليه عقله الجبار وقريحته الوقادة وخواطره الهائجة، فآثر أن ينقطع للدرس والبحث والتحقيق العلمي في بيته.

وقد عاش صاحب الترجمة كما يعيش معظم الفلاسفة. وللفلاسفة عيشة في الغالب صورتها الاعتكاف، وأساسها الزهد، ورائدها مواصلة البحث والتفكير، وغايتها محاولة الوصول إلى الحق..

وهكذا رأينا سبنسر زاهدًا في الدنيا قليل الاكتراث لزخرفها.

ذكرت دائرة معارف القرن الرابع عشر العشرين: أن إمبراطور الألمان أهدى إليه هو والأستاذ (باستور) وسامًا من درجة عالية فأبياه معًا...

فأما باستور فأباه محتجًا بأنه لا يقبل وسامًا من أمة محتلة للإلزاس واللورين العزيزتين على فرنسا.

فأما سبنسر فاحتج لعدم قبوله الوسام بأن ألمانيا لا تسير في نظامها الاجتماعي على مبادئه فهو لا يقبل منها شيئًا؛ لئلا يقال: إنه خائن لمذهبه..

على أن زهده لم يكن منصرفًا إلى ما ينصرف إليه زهد الأغنياء، فلم يكن زهده مطلقًا في صورة الزهد المطلق القائم على إغفال العناية بالصحة وإهمال الرياضة البدنية، بل كان زهدًا بصيرًا فهو لم يهمل العناية بصحته، بل كان حسن النظام في ترتيب معيشته وتنظيم أوقاته بين العمل العقلي والرياضة البدنية..

ذكر الأستاذ سليم مكاريوس بعد أن أتيحت له فرصة مشاهدة سبنسر ومحادثته كثيرًا أن سبنسر كان يخص بعض وقته بالراحة من عناء الأشغال، ويقصد نادي «الأثينيوم» يتسلى فيه بلعب البلياردو، وكان مولعًا بلعبه، ويقصد أيضًا مشاهدة التمثيل ويفضل الهزلي منه على سواه فينظره إلى ألعاب الناس الهزلية ويغرب في الضحك، وكان يذهب مع كاتبه إلى بحيرات إسكتلندة، وهناك يملي عليه نحو ربع ساعة، ثم يترك الشغل العقلي نحو ربع ساعة أخرى يركب فيها قاربًا ويجدف حتى تنشط الدورة الدموية بحركة التجديف الرياضية ثم يعود إلى الإملاء. وكذلك كان يأخذ كاتبه معه في لندن إلى ساحة تلعب فيها الألعاب الرياضية فيملي عليه قليلًا ويلعب قليلًا..

ويقينًا لولا هذه الحياة المرتبة الموزعة بين العمل العقلي وبين ترويح النفس -لما استطاع سبنسر أن يستوعب كل ما قرأ، وما أكثر ما قرأ! ولما استطاع أن يتحمل عبء عمله الجسيم إلى الرابعة والثمانين من عمره وهو في حركة دائمة وعمل مستمر وتحقيق دقيق.

ولم يكن زهده في صورة زهد النُّسَّاك والعابدين الذين لا يعاشرون أحدًا ولا يهتمون بأمور العالم ولا يبالون بما يجري حولهم من الحوادث، بل كان زهد حكيم؛ إذ لم يمنع من الاهتمام بالمسائل العمومية وحوادث الأيام سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية، ولعل ذلك يرجع إلى كثرة أطلاعه على المذاهب الشتى والآراء الكثيرة فقبل منها ما قبل وطرح منها ما لم ترق في نظره، وإنك لترى في تضاعيف ما كتبه بنفسه وما كتبه الغير عنه جملة متشعبة من المسائل تمس جميع مرافق الحياة، فبينا تراه يقول بتقليل تدخل الحكومة في شئون الأفراد إلى أدنى حد؛ إذ يصيح بضرورة تمتع الفرد بحريته في أقصى درجاتها الممكنة، كأنه يرى أن مهمة الحكومة تنحصر في حفظ النظام وفي الدفاع عن الأمة من الاعتداء الخارجي، قال في هذا الصدد نقلًا عما جاء بدائرة معارف القرن الرابع عشر العشرين: «إن سيادة الحرية في الزمان المستقبل سيكون باعثها العاطفة الخلقية

المغروسة في جبلتنا ليس إلا، وهذه السيادة للحرية ستكون النتيجة الطبيعية للتدرج الاجتماعي في الارتقاء»، ثم قال: «إن الحكومة ستنحل انحلالًا لا قيام بعده ويصبح الناس أحرارًا بغير حكومة مسيطرة عليهم» على أن هذا الرأي السياسي الذي خطر له ولسواه من قبل نراه حلمًا بعيد التحقيق. وجاء في الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين لصحيفة المقتطف: «إنه لما هاجت الحرب بين الإنجليز والبوير انتصر للبوير على قومه وجزع وأسف على ذهاب قوته وعجزه في شيخوخته عن الجهاد لمنع تلك الحرب أو إبطالها قبل استفحال شرها؛ فإنه كان أشد الناس كرهًا للحروب لاعتقاده أنها من أسباب تقهقر العمران، ولا يجيزها إلا إذا كانت دفعًا للتعدي على الوطن»، وهكذا كان جليًّا ميل سبنسر إلى الذود عن حياض الحرية الشخصية، حتى إنه كان يرى أن المزية الكبرى في ارتقاء الجماعات هي «للحرية الشخصية»، وأن أشرف عمل للإنسان إنما هو في معارضة ما وضعته الحكومات أو الهيئات من القوانين التي تتعارض مع مصالح الأفراد وتسلب الحرية الشخصية منهم- أما من الوجهة الاقتصادية فكان يعتبر الملكية الفردية نتيجة نهائية للترقي، أي: ثمرة انقلابات مفيدة للمجتمع، وأن الأرض ستصبح ملكًا شائعًا بين الناس كافة. نرى فيما تقدم الكفاية لإثبات أن سبنسر الزاهد في ملاذ الحياة، والعاكف على التأليف في بيته كان مرتبطًا بروحه مع الأفراد والجماعات، شاعرًا بشعورهم، مطلعًا على كل ما يجري حوله من الحوادث وكل ما يستحدث من الأمور، واضعًا نصب عينيه خدمة الإنسانية ورفع شأن بنيها في جميع مرافق الحياة دون أن يحفل بشهرة ينالها أو منزلة يتنسمها من أبناء قومه..

ومن ثَم لم يكن حظه من نعيم الحياة -إن عددنا المظاهر والمال نعيمًا- بأحسن حالًا من حظوظ معظم الفلاسفة والحكماء، فعانى من آلام الفقر ما عاناه أمثاله من العلماء والمصلحين، على أن الفاقة لم تكن لتقف في سبيل عمله، ولم تكن لتثبط شيئًا من تلك العزيمة الجبارة، ولم تكن لتزعزع ركنًا من أركان بغيته الثابت، وليس أدل على صحة ما تقول من أنه ظل في تحرير مؤلفاته العلمية الغويصة دون أن يحفل بالجانب المادي الذي ينفقه عليها، وعلى الرغم من كسادها وعدم إقبال الناس عليها في بادئ الأمر لم يحوِّل دفة كتابته شطر الروايات أو التواريخ التي يتهافت الناس عليها ويتزاحم القراء على شرائها.

جاء في دائرة المعارف القرن الرابع عشر العشرين: «لما نشرت الطبعة الأولى من كتابه في

أصول علم النفس لم يُطبع منها إلا ٧٥٠ نسخة، ولم تنفد إلا بعد مضي ١٢ سنة، ولما طبع كتابه في أصول العمران لم ينفد هذا العدد منه إلا بعد ١٦ سنة، ولذلك فقد «سبنسر» في أثناء ١٥ سنة ما قدر بمبلغ ١٢٠٠ جنيه فضلًا عن تعبه في البحث والتنقيب.

ولكن الرجل العظيم إنما يتدرع بالصبر، ويعظم بسعة الصدر، وهكذا ظل سبنسر مواظبًا على العمل حتى غلب ميول الناس بعلمه فتولد فيهم شعور جديد مال بهم إلى مطالعة موضوعاته فشاعت كتبه بين الأدباء وراجت سوقها بين أهل البحث وطلاب العلم، على أن رواجها كان محدودًا في دائرة ضيقة لم تخرج منه إلى سوق الكتب الأدبية والقصصية التي كانت مورد رزق دائم وثروة طائلة لمنشئيها ومؤلفيها.. فقضى «سبنسر» معظم حياته وهو يقاوم خصمه الفقر، ويخيل إلينا إنه لو بقي في مهنته الأولى مهندسًا لساعده ذلك على تحسين حالته المادية، ولكن قوة الإرادة تدفع صاحبها إلى تحقيق رغباته وميوله مهما كان في ذلك من المخاطر والمجاذفات، وهي التي تجعل صاحبها يحسب الألم لذة، والفقر غنى، والجوع شبعًا، والظمأ ريًّا، والنصب راحة، والشقاء سعادة وهناء..

على هذا المبدأ القويم أخذ سبنسر يؤلف حتى إذا فرغ من أحد مؤلفاته عرضه على ناشري الكتب فلم يجد بينهم من يبذل شيئًا في سبيل طبعه خوفًا من الكساد؛ لأن الموضوع جديد وجاف، فاضطر أن ينفق على نشر كتبه من دخله أو من مساعدة قرائه وهم قليلون.

أتراك تصدق أن سبنسر قضى ١٢ سنة في أول أمره ولم يسترجع من بيع كتبه ما يساوي طبعها، ولما راجت لم تكن تقوم بنفقات معيشته إلا بعد زمن طويل مع قلة النفقات التي كان يتطلبها، ومع ذلك فقد استغرق في تدوين مؤلفاته بضعًا وستين سنة وهو يصنف ويؤلف في أدق وأهم الموضوعات العلمية، ولا شك أن لعزوبته فضلًا في إنجازه تلك المشروعات العلمية الكبيرة، فكان سبنسر في الواقع طوال حياته سراجًا وهاجًا، يملأ الأفق المحيط به وما جاوره وما داناه نورًا لألاء، وضياء مستفيضًا، حتى إذا ما استنفدت تلك الروح الناشطة منذ الصغر وتلك الهمة العالية منذ الصبا ما في المصباح من زيت، ولم يشفق على نفسه ولم يرحم جسمه الذي تعب وسقم من حمل تلك النفس الكبيرة انطفأ المصباح ونادى الناعي صبيحة يوم الثلاثاء ٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ «مات سبنسر» وهو في الرابعة والثمانين من عمره، فكان سبنسر شهيد الصراع العلمي

وضحية الجهاد العقلي، ولكنه ذهب وجبينه مكلل ومتوج بما في كنزه العلمي الذي تركه للعالم من إكليل الفوز وتاج النصر...

وقد أوصى أن تحرق جثته، وألا توضع الأزهار على نعشه، ولا يلبس أحد السواد حدادًا عليه، وأن يؤبنه صديقه الحميم المستر (جون مورلي) الفيلسوف السياسي المشهور بالأقوال الوجيزة ساعة دفنه..

وقد تصادف أن كان هذا المستر غائبًا في صقلية، ولا يستطيع الوصول يوم دفنه، لذلك تولى تأبينه المستر (ليونارد كورتني) وقد سبق الإشارة إليه..

ولم يذع نعيه حتى توالت التعازي البرقية على منزله من كافة أنحاء العالم المتحضر، واشترك في تأبينه بعض مجالس النواب...

هكذا عاش سبنسر في حركة دائمة لم يكف عنها، وعمل جسيم لم ينقطع عنه، فكان بذلك دليلًا ساطعًا على أن الاعتماد على النفس والتربية الذاتية وكثرة الاطلاع مع التأمل وقوة الإرادة تبني للشخص ثقافة عالية خير مما تكونها المعاهد العلمية على أساليبها النظرية.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نختم ترجمة حياته بما ذكره عنه المستر ليونارد كورتني في آخر رثائه حين قال: «والآن وقف عقله عن عمله وبطل ما يدل على الشعور بالموجودات، فهل يبقى وجدانه بعد زوال آلته؟ وهل الروح التي كانت في هذا الجسد خالدة مثله غير فانية أو ترجع إلى القوة الأزلية- التي صدرت منها كما تصدر الشرارة من النار؟ وإن كانت لا تفنى في المستقبل أفليس أنها لا تستطيع أن توجد من نفسها كما لا تستطيع أن تفنى؟! أستاذنا لا يعلم ذلك ولا يدَّعي علمه؛ لأنه فوق طور العقول وقد تزيد معارف الناس ويقل ما يجهلونه على توالي العصور، ولكن المجهول يبقى كثيرًا جدًّا بالنسبة إلى القليل الذي نعلمه، وقد يتصل الناس إلى معرفة شيء مما يحسب الآن في عداد ما لا تدركه الأفهام، ويبقى السر الأعظم وراء طور العقول ولكننا لا نعفى من الاشتغال في النهار قبل أن يدركنا الليل، وإذا أمكن الاشتغال فليكن شغلنا فيما هو شريف ونافع فيما يزيد حياة الناس قوة واتساعًا، ويعلي شأن الفضيلة. هذا هو السبيل الذي سار فيه سبنسر فإنه وقف نفسه لخدمة أبناء نوعه مثل أفضل الرجال المنتمين إلى مذهب ديني

مخصوص.

فالوداع الوداع أيتها النفس الخالدة الأثر التي لا تزال تكلمنا، وسيبقى صوتها مسموعًا مدى العصور التالية...